أنور شاؤل

مذكرات صبي بلا أحذية

اسلوب مبتكر في نقد بعض المعايب الاجتماعية

نشرت متسلسلة في مجلة الحاصد الأسبوعية
في أعدادها 12 – 31 من سنتها السادسة
(16 تموز – 26 تشرين الثاني 1936)

(حقوق إعادة النشر بأية صورة كانت محفوظة لعائلة الكاتب)

- فصل يهديه المؤلف الى مديري المدارس الابتدائية والى لجان التصحيح -

السقطة اللعينة

يا لها من سنة مشؤومة ! ما زالت اشباحها البغيضة ماثلة امامي . انني احفظ لعهد المدرسة ذكريات مرة كما احفظ ذكريات حلوة ولكنك لو سألتني اي الذكريات ارسطها واشدها الماً في قرارة نفسك لاجبتك بدون تردد انها ذكريات السنة الدراسية ١٩٢٩ / ١٩٣٠ التي قضيتها في الصف السادس الابتدائي وانهيتها في امتحان بكالوريا السادس الذي خرجت منه مهشماً دامياً حائراً مضطرباً !

ولو كان اجتهاد السنة عادياً لهان امر السقطة اللعينة ، ولكن اسمح لي ان احدثك كيف قضينا العام في المدرسة ، كيف درسنا كيف سهرنا ، كيف عصرنا ادمغتنا ، وارقنا ضياء عيوننا ، ثم دعني اكشف لك عن نوع هذه السقطة العجيبة الكافرة اللعينة التي قدر لي ان اسقط .

منذ اول يوم من ايام السنة الدراسية دخل علينا حضرة المدير تبدو على وجهه ـ بخلاف عهدنا فيه ـ امارات الجد . قال لنا بنبرة مؤثرة : «انتم الآن في السادس وعلينا ان نبعثكم في آخر السنة للمشاركة في امتحان بكالوريا السادس ! اجل امتحانات الصفوف السادسة ، حيث تبيض وجوه وتسود وجوه (لا بد لي ان الاحظ هنا ان مديرنا قلما استعمل قبل هذا مثل هذه الجملة الخشنة لحملنا على الدرس !) فعليكم ان تجتهدوا ، عليكم ان تضاعفوا همتكم . انني اوصيت كافة المدرسين بمضاعفة جهودهم معكم . »

الا يا ويحنا من ذلك الامتحان المنتظر ! لقد قامت له المدرسة وقعدت منذ اول يوم من السنة الدراسية ، والحق انني شعرت بانني مقدم على امر خطير ، هائل ، امتحان جبار لم يسبق لي ان امتحنت نظيره . دليلي على ذلك هذا الاهتمام العظيم من جانب المدير والمدرسين واخواني التلامذة .

تعب ، نصب ، سهر ، قلق وهواجس كانت صفات الدراسة في الصف السادس . كل يوم نصائح وعظات بشأن مضاعفة الاشتغال ، كل يوم اختبار وفحص لوزن ما « درخناه » من الدروس ، كل يوم تهديد بغربلة الضعفاء منا .

كنت اشعر وكان يشعر معي اكثر

التلامذة بعبء ثقيل على صدورنا وغشاوة على عيوننا . كنت احمل شعوراً مقيتاً لهذا النوع من نظام التدريس الذي سارت عليه الادارة في السنة السادسة .

لم يبق لمدرسينا وقت لتلهيتنا بين وقت لآخر بفكاهاتهم وعاباتهم . لا رياضة . لا نشيد.... ولا . . ولا . . كنت اشعر في نفسي، ولربما كان هذا شعور الاغلبية من اخواني ، انني اشبه ببغل الطاحونة يدور ويدور ويدور معصوب العينين ملهوب الظهر بالسياط . دائماً درس لا استراحة ولا هوادة !

وكنا نعزي انفسنا في هذا الوطيس الحامي بالثمرة المنتظرة . وقامت المدرسة بغربلتنا ثلاث مرات وفي كل منها خرجت ناجحاً نجاحاً لا بأس به وان انس لا انس آخر خطبة حماسية القاها مدبرنا قبيل الامتحان لحثنا على مواصلة الجهد ، حتى اذا ما بلغ قوله لنا « حذار ان تتركوا مدرسة اخرى تسبقكم ! » لمحت بريقاً في عينيه لا شك انه كان بريق الدموع !

وضاعفنا جهودنا لمواجهة المعركة الفاصلة !

واذ كان موعد الامتحان كان كل مدرس يحجزنا في المدرسة ليلة الامتحان في درسه الى ساعة متأخرة ، الى الثانية عشرة ، الى الحادية بعد منتصف الليل حتى ان مدرس الحساب لاسترسالنا في حل المسائل ، مئات المسائل ، حجزنا حتى بزوغ الفجر . . بامكانك ان تتصور بعد هذا وضعية قوانا العقلية والبدنية والخلقية اثناء تأدية الامتحان !

فرغنا من الامتحان وصرنا في دور الانتظار .

انتظار قاتل للحصول على نتائج الامتحان . . كل يوم بشهر وكل شهر بعام كامل . واخيراً وافتني البشرى المنتظرة

سقوط تام لاخفاقي في الحصول على درجات النجاح . ولدى التدقيق ظهر انه لم يكن بيني وبين النجاح سوى درجتين من مائة درجة في الحساب ، ودرجة واحدة من مائة في الجغرافيا ثم ضعف وهزال في المجموع العام للدرجات !

واراد المدير ان يزيح المسؤولية التي خلقها لنفسه من مطلع العام فقال يخاطب الراسبين وهو ينظر الي شزراً :

« هذه نتيجة الاهمال . . هذه نتيجة التهاون ! هذه . . » اما انا فقد كنت اتظاهر بالضحك بينما في قلبي نار مستعرة .

وانصرفت اتعثر باذيال الخيبة الى حيث لا عودة الى حياة المدرسة !

(٤)

الحرفة التي اخترتها

اثار سقوطي في امتحان بكالوريا السادس ضجة بين اهلي واقربائي فمن متأسف ومن حانق ومن يائسة ومن باكية . اجل ان امي مكثت ثلاثة ايام بلياليها تبكي بكاء مراً . . اعتقاداً منها ان الفرصة الذهبية قد افلتت من يدي وانني سوف لا احمل الشهادة التي يقال عنها انها اصبحت تأتي بالعجائب وان يكن حاملها ابلد من حمار السقاء !

وثارت كذلك مناقشة بين ابي وعمي حول ما اذا كان علي ان اعيد السكرة ام اغادر المدرسة . ان والدي كان يعتقد بوجوب اعادة السكرة وكذلك كانت رغبتي اما عمي المحترم الفاضل - ولا تنس انه كان يجود علي احياناً بمساعدات مالية طفيفة لتمشية الحياة المدرسية - كان يرى ان علي ان اترك المدرسة لاني اصبحت رجل سوق على حد تعبيره وقد اصبح ضرورياً ان ابحث لي عن مرتزق. والحقيقة التي لا غبار عليها انه كان يرغب في التخلص من دفع هذه المساعدة التافهة التي كان عليه أن يعتصرها من قلبه - لا من كيسه - اعتصاراً

وبديهي ان الشقيق الاغني هو صاحب القول الفصل وان يكن اصغر سناً واضيق تفكيراً فرضخ والدي الى رأي عمي ونزلت انا عند رغبة الاثنين لاني بدوري سئمت هذه المناقشات السخيفة التي لا طائل تحتها .

ووجهت الى عهد المدرسة كلمة وداعي الاخير !

ووقفت على عتبة الحياة ابعث بعيني الى هذا الجو الصاخب والبحر المتلاطم ، هذه وجوه عابسة وتلك اخرى تلوح عليها ابتسامات السخرية ، هذه ملامح انانية يبدو على هذا الشخص وذلك آخر يتظاهر باللطف ولربما يكون بالفعل لطيفاً ولكن من يدري ؟

ورحت افكر في الحرفة التي يجب ان احترف ؟ عرض علي الاهل ان اكون مستخدماً في احد المخازن او عند احد الباعة او الخياطين فرفضت لانني كنت ارغب ان اكون سيد نفسي ففكرت وفكرت وانتخبت ثم عدلت ثم انتخبت ثم انثنيت ثم وقع اختياري بعد تفكيرة استغرقت سبعة ايام بلياليها على ان اكون صباغ احذية وانها لمهنة فيها ما فيها من تعب ونصب الا انها حرة شريفة لا تخلو من رياضة بدنية ومن تنقل

من مكان الى مكان وذلك ما كان له في نفسي اكبر شأن .

سينظر الي بعض زملائي الاقدمين بعين الاستهزاء . هذا ما جال في فكري ولكنني سأقول لهم: «على رسلكم يا اخوان . من منا لا يصبغ ، ولئن اختلف المصبوغ فان الصباغ هو صباغ والصباغة لم تتبدل صفتها . ولئن صبغت انا احذية فان هناك من يصبغ الحقائق ، وهناك من يصبغ اصحابه وهناك من يصبغ اهله وذويه !

ما اكثر الصباغين ! ان بامكاننا ان نقول يا صحب ان الناس كلهم يصبغون انما بفرشات مختلفة القياس متباينة الشعر فمنها الكبيرة ومنها الصغيرة ومنها الناعمة ومنها الخشنة . والصبغ كذلك يختلف فمنه الابيض الكاذب ومنه الاسود الفاحم ومنه الاحمر الدموي والازرق الفاتن وكل لون من الوان قوس قزح !

اخشى ان يطول البحث . انني صممت اخيراً تصميماً لا رجوع عنه ان اكون صباغ احذية فبقي ان اجد المبلغ الزهيد الذي احتاج اليه لشراء لوازم الصباغة للخروج « على باب الله » وبه التوفيق !